صـــــــــــــــدر عـــــــــــن (المدى)

أرسكين كـــالـــدويل في (اسمهـــا تجـــربـــة)

رجل انفق الكـثـيـر على شراء الـطـــوابع

نـزار عبـد الـسـتـار

يسهل، مع البعض من الكتّاب، الشعور بالاكتفاء من قراءة قصة او قصتين. هذا ما انتابني عندما قرأت، في بداية التسعينيات، لارسكين كالدويل اول مرة، وقد لازمني هذا الشعور، وترسخ اكثر، ما ان طالعت سيرته المعنونة (اسمها تجربة).

احتفظ لكالدويل، في ذاكرتي، بقصة قرأتها له عن زوجة غنية الامومة، تنهمك في مسؤولياتها المنزلية الى حد تفقد معه تأثيرها الانثوي. وعند موتها، يتم اعدادها، وتزيينها لمراسيم القاء النظرة الاخيرة على الجثمان؛ فيصدم الزوج، ومعه الابناء، من اكتشاف ان الام كانت فائقة الجمال، والروعة، والبهاء. هذا بالتحديد ما كرر ارسكين كالدويل قوله في كل ما كتب طوال اصراره الشاق، والمستميت على ان يصبح كاتبا مرموقا.

ارسكين كالدويل بالنسبة لي من اكثر الكتاب الامريكان عفوية وبساطة، وهذا ما يثبته كتابه الممتع (اسمها تجربة) الذي يقول عنه: انه مجموعة من الذكريات، غير المنتظمة، المتعلقة بمهنة الكتابة. والحقيقة ان كالدويل لم يذكر في كتابه شيئا يمكن ان يكون له قيمة بالنسبة لشخص يتعطش لمعرفة اسرار هذه العبودية اللذيذة لان السيد كالدويل اهتم كثيرا بمسألة سرد كفاحه من اجل نشر قصصه وكتبه ولم يذكر شيئا له قيمة فيما يخص الكتابة وفلسفتها.

ان اخطر ما في فن كتابة السيرة هو صعوبة الفصل مابين الحقيقة والكذب؛ فالفرصة تكون مواتية للكاتب لاضافة التحسينات، واجراء التجميل اللازم، وتزوير التاريخ. واعتقد ان السيد كالدويل صنع لنا كتابا بأقصى قدر من الأمانة، وهو ما أجبرني على تجديد احترامي له، بل ان كتاب (اسمها تجربة) اعطاني ما كنت اظن ان الخيبة دمرته، واقصته : العزيمة.

من شدة صدق كالدويل انه لا يقوم بسد ثقوب الذاكرة بالقص واللصق، ولا يستعمل الحيل السردية حتى في اشد المواقف صعوبة. وتراه يقطع عليك الانسياب التسلسلي، ويقفز من موضوع إلى آخر إذا ما استنفد كل ما في ذاكرته. هذا الالتزام المهني له صلة وثيقة بالمفاهيم والقيم الحياتية التي يحملها الكاتب الذي اشتهر بتقصي الوجع الانساني في : الجهل، والفقر، والمرض.

قسّم ارسكين كالدويل كتابه الى ثلاثة فصول مع تمهيد وخاتمة. الفصل الاول الخاص بالسنوات المبكرة هو الامتع والاجمل حيث يتحدث عن انغماسه، منذ سن التاسعة، في العمل رغم الاضرار التي لحقت بدراسته وبالوقت الذي كان يفترض ان يخصص لمتع مرحلة الشباب، واصراره فيما بعد على الاستمرار في تقديم الدعم لعائلته والاعتماد باقصى ما في الرجولة من اصرار وصلابة على نفسه. الصحافة كانت احدى المهن التي جذبت كالدويل ومن خلالها بدأ التعلق بالكتابة ليستمر هذا الهاجس خلال سنوات قليلة بالنضوج والتطور الى ان يصل كالدويل الى قرار حاسم؛ فيعاهد نفسه على اعتبار اية مهنة يعمل فيها، باستثناء الكتابة، مهنة مؤقتة لا يبتغى منها سوى الحصول على لقمة العيش والمسكن والملبس. وحدد مدة خمس سنوات لتحقيق طموحه مع الاقرار ضمنا بأن الامر قد يستغرق خمسا اضافية اذا دعت الضرورة.

كتب ارسكين كالدويل مئات القصص بجنون وشغف واصرار وكان يرسل قصصه بالبريد الى المجلات المتخصصة وينفق كل ماله في شراء الطوابع اللازمة لذلك دون ان يحصل على نتيجة مشجعة. التفاصيل التي يرويها كالدويل عن هذا الشقاء اليومي تثير الشفقة، كما ان اصراره المستميت، وانكاره الدائم للفشل مهما كانت شدة الصدمات جعله، في نهاية الامر، يمسك بخيط النجاح، الا ان هذا النجاح، كما يروي كالدويل في الفصل الثاني، لم يكن سهلا وكلفه المزيد من الوجع والجوع، وقد لازمته المعاناة لسنوات لاحقة بسبب عدم حصوله على الاجماع الكامل فيما يخص اصالة موهبته.

الكاتب لا يتطرق الى المؤثرات الفنية التي ساهمت في انضاج تجربته ويعتبر تمرين الكتابة هو المعيار الاساس للتطوير وان اهتمامه بالطبقات المسحوقة ونزعته العاطفية في الكتابة وعدم انشغاله بالشكل الفني هو ما يميزه عن غيره من الكتاب. ويبدو ان ارسكين كالدويل استفاد كثيرا من قدرته على التواصل باصرار لا يكل في فرض نفسه ككاتب قصة لذلك فهو يشكك في النقد الذي كان يوجه لكتبه ويتهمه بعدم الموضوعية.

يعترف كالدويل بانه يقرأ القليل من الكتب. لايتجاوز ست روايات في السنة ويقول : قبل سنين بعيدة قسمت الناس قسمين : قراء وكتاب. ورغبت دائما بالانتماء الى الفئة الثانية. وككل الذين يثيرون فضول الناس من وفرة المال الذي يحصلون عليه يعمد كالدويل الى الاهتمام بالجانب الشاق من الكتابة وهو العمل بتواصل في ظروف صعبة من اجل الحصول على نتيجة ايجابية. وهذا ما قام كالدويل بتسليط الضوء عليه في كتابه (اسمها تجربة).

ان ابرز اراء الكاتب في مجال تقديم النصائح يرتكز على نقطتين مهمتين، الاولى الاستمرار دون كلل في مراسلة المجلات، والثانية العمل ليل نهار على الالة الكاتبة دون الشعور بالملل. بساطة كالدويل في هذا تجعله كائنا متطابقا في الذاتين الانسانية والمهنية وهو دائم الربط بين شخصيته والعالم الذي نشأ فيه مما يجعل الكتابة لديه وظيفة حياتية دقيقة وحساسة تنطبق عليها كافة الضوابط التي تلزم الانسان.

اسم المؤلف : ارسكين كالدويل
عنوان الكتاب : اسمها تجربة
المترجم : معين الامام
الناشر : المدى
الطبعة الاولى : ٢٠٠٦

على طاولة (المدى):

واقع ومشكلات الحياة الجامعية في العراق..

(جامعة بغداد انموذجا)

د. محمد حسين الاعرجي: الأستاذ الضعيف لا يتخرج من معطفه الا الطلبة الضعفاء
د. مالك المطلبي: الكبت المستمر غالباً ما يؤدي الى مضاعفات خطرة
د. سافرة ناجي: الجامعة أضحت مكاناً لا غير والطالب مجرد رقم

كنا قد نشرنا القسم الاول من ندوة" واقع ومشكلات الحياة الجامعية في العراق،جامعة بغداد نموذجا" التي أقامتها مؤسسة"المدى"للثقافة والإعلام والفنون،حيث كان الحديث عن مشكلة الكفاءات العلمية في الجامعات العراقية للدكتور محمد حسين الاعرجي الذي توقفنا في حديثه في القسم الاول عند موضوعة تبعيث التعليم واشتراطات الترقية.

الاعرجي في هذا الصدد يواصل قائلا: قبل أيام سمعت وكنت مستغربا، حقا، ان التعليمات التي صدرت تقضي ان يقدم طالب الترقية الى لقب استاذ خمسة بحوث،يكون اثنان منها أصيلة والاخر قيمة أو مفيدة ومن ثم يرقى الى لقب استاذ، فيما ان العملية الجامعية هي كالدورة النايتروجينية في الطبيعة، بمعنى آخر، انها تشتمل على ثلاثة عناصر، هي الاستاذ والطالب والمنهج، فالاستاذ الضعيف لا يتخرج من معطفه سوى الطلبة الضعفاء. ويسوق الاعرجي مثلا لما يذهب اليه فيقول: أمضيت أدرس في بولونيا ثماني سنوات، لم أراجع خلالها رئاسة الجامعة سوى اربع مرات، فقط،،حين أروم توقيع العقد مع رئيس الجامعة، عدا ذلك، فان المنظومة الادارية تخول سكرتيرة القسم انجاز المتطلبات الجامعية كافة لأي استاذ من أساتذة الكلية، أما في العراق، وتحديدا في جامعة بغداد، فان الاستاذ الجامعي تستنزفه المعاملات التي تأخذ من وقته الاسابيع والاشهر لانجازها، فضلا عن هضم حقوقه وما يقع عليه من غبن، أما الكارثة الثالثة وهي الطامة الكبرى، فانها تتعلق بالطالب المتقدم للدراسات في الظرف الراهن، واعني بذلك، تكرار ذلك السؤال المقيت وهو انتماء الطالب المذهبي، وتحديد ان كان الطالب ينتمي الى هذا المذهب أو ذاك، والذي يماثله ابان سنوات النظام السابق، سؤال لايقل بشاعة عن السؤال السابق، وهو هل هو بعثي ؟.

النظام العام في العراق تعرض الى مزيد من التخريب والتشويه

ويعقب المطلبي على حديث الاعرجي قائلا: أنا أعترض على هذا الوصف، لان التبعيث كان يجري على وفق قانون، اما ما يحدث الان فيما يخص العصبية المذهبية ، فهو محض تخلف،وارى ثمة فرقا كبيرا بين الاثنين، خاصة ونحن الان في بلد يفتقر الى الجامعة الحقيقية والى التفكير الجامعي السليم،الاندفع ثمن ذلك كله؟، لذلك أرى أن هذا يلزم تغيير أنماط السلوك والتفكير،وهذه عملية جد صعبة ومعقدة، لان البعض يعتبر الحؤول بينه وبين الاستاذية قطعا للأرزاق وعملية قتل لاسرته، ويضيف المطلبي : منذ عشرين عاما وانا ادرس طلبة الدراسات العليا، لم أجد طالبا سوى واحد اعتذر عن اكمال دراسته، لانه يشعر بعدم قدرته على المواصلة،اذن وعندما نصل الى مستوى من الثقافة الذاتية في الجامعة، نستطيع ان نسيطر على معظم الشأن الجامعي،بل ربما نرتقي به. من جانب آخر، ان النظام العام في العراق تعرض الى المزيد من التخريب والتشويه، وهذا بلا شك، يستوجب المرور بمرحلة تخلف والتي أسميها "مرحلة تقدمية" بمجرد الاعلان عنها،حتى أن الطائفية ستفرغ عن مضمونها عند الاعلان عنها،لان الكبت المستمر غالبا ما يؤدي الى مضاعفات خطرة جدا.

يداخله الاعرجي موضحا: أتلقى أحيانا بحوثا عديدة لزملاء آخرين هم بدرجة الاستاذية، لكنها عندما تعرض على خبير لغرض نشرها في صحيفة ما،يجدها غير صالحة للنشر !!هنا أتساءل كيف أصبح صاحب هذا البحث استاذا جامعيا ؟! بل يشرف الان على بحث طالب دراسات عليا.

من جانبه يعقب المطلبي قائلا: إننا نعيش الان مرحلة عمى ألوان "الحرية" لذلك أجد أننا بحاجة الى عودة الذات، لكننا ومن على طاولة هذه المائدة،لانستطيع أن نغير شيئا،بل نحن ننتقل من الحرية الى انتاج الوعي بمعنى نحن في مرحلة "توع" أي ننجز عملية توعية،كي نشخص فحسب،لان قدراتنا التنفيذية والتغييرية، خارج ارادتنا، وقضية الاستاذ الجامعي،ليست،كما أرى، مرتبطة بتقنيات محددة تتعلق به، بل هي قضية تخص عموم النظام العام، اذا حدث تحول في العراق من عشيرة العشيرة الى عشيرة القانون،عند ذاك ندخل بالوطن والمواطنة وستنشط الثقافة بدرجة كبيرة لانها متحررة من القيود المادية،واعتماد شروطها على مستويات الوعي.

"المدى" داخلت المطلبي بالقول: هذا كلام نظري، لدينا واقع منظور معيش،هناك على صعيد الواقع سلسلة من الاغتيالات طالت العديد من اساتذة وعمداء الكليات العراقية، فما هي الحلول وما هي المعالجات؟

رد المطلبي قائلا: ليست لنا علاقة، لاننا لسنا برجال أمن أو رجال بوليس، هناك جهات معنية بهذا الامر،فمن نحن حتى نوقف هذه العمليات ؟ هذه عوامل معقدة ومتداخلة،وأرى اننا لسنا معنيين بها تماما،بل لارأي لنا فيها.

لا توجد ضوابط والترقيات لا صعوبة فيها

ردّ الاعرجي موضحا: ان التعليم يأتي من خلال القراءة والاطلاع، والطالب هنا ما أن يهم بالمذاكرة أو القراءة حتى يتفاجا بانقطاع التيار الكهربائي، اذن هل يقرأ على ضوء الفانوس أو"اللالة" ؟!اتساءل كيف سيقرأ الطالب ويتعلم ويتطور في مثل هذه الظروف المعقدة والصعبة؟ أسوق لكم مثلا حيا، بولندا بلد فقير اذا ما قورن بالعراق الذي يمتلك ثروات هائلة،لكنه يعيش فيه أفقر شعب ! أقول هذا البلد الفقير،لديه من الحواسيب ووسائل الاتصال الحديثة ما يعجز عنه الوصف،اذكر كنا لانتجاوز الثمانية أساتذة نعمل على أربعة حواسيب ترتبط بالانترنيت ومخصصة لقسم واحد، في حين هنا وفي قسم اللغة العربية لجامعة بغداد،لانملك سوى حاسوب واحد في كلية الاداب،تجده موجودا في غرفة رئيس القسم !كما علينا أن لاننسى مشكلة التهجير التي تضطر الطالب والاستاذ على حد سواء، الى ترك دراستهم وأحيانا بيوتهم.

ويشير الاعرجي متسائلا: كيف لنا ان نخلق الكفاءة العلمية؟ بدأ البناء،فمنح عضو الشعبة أو عضو الفرع،شهادة الدكتوراه برغم انوف الجميع، مع انهم لم يكونوا مؤهلين لهذه الشهادة، كما ان كل المتخرجين الذين قاموا بتدريسهم كانوا بمستوى علمي متدن، والخريج الذي تم تعيينه مدرسا، قد خرج طلبة متوسطة في ادنى درجات التدني والضعف، فما علينا أن نعمل ازاء هكذا وضع علمي كارثي؟هل نفصل جميع الاساتذة لنبدأ من جديد ؟ هل لكي ننشئ جيلا جديدا علينا ان نلغي أجيالا اخرى قائمة؟ ثم ما أسهل القبول في الدراسات العليا، لهذه الاسباب وأسباب أخرى، أجد أننا بحاجة الى حلول حقيقية جذرية وناجعة، هنا أقول، ربما تنفعنا تجربة جامعة الجزائر، تلك التجربة التي اعتمدت على طريقة جد بسيطة وهي أن يقوم الاستاذ بالقاء محاضرته على الطلبة وبحضور مفتش من وزارة التعليم العالي،يتولى مهمة تقييم اداء الاستاذ وعلميته،من خلال تقرير تقييمي يرفعه الى الوزير يقررفيه صلاحية هذا الاستاذ من عدمها. في العراق الان لاتوجد ضوابط والترقيات لاصعوبة عليها، في الوقت الذي كانت فيما مضى تخلق الاستاذ المقتدر والكفء، فهل هناك من أحد لايعترف بأستاذية الدكتور مصطفى جواد أو الدكتور عبد الجبار المطلبي وآخرين من الرعيل الاول؟

أما عن محور تلكؤ الدوام وارتفاع نسبة الغيابات في الكليات فقد تحدثت عنه الدكتورة سافرة ناجي قائلة: لايخفى على الجميع بان المفصل الجامعي هو أحد المفاصل الاجتماعية، بل هو من أهم تلك المفاصل،أما تلكؤ الدوام وكثرة الغيابات فاجده ناتجاً عن عملية الاستسهال والمجانية في التعليم العالي ذلك بسبب الدور السلبي الذي يلعبه الطالب الجامعي، فضلا عن دور الملقن الذي يتقمصه الاستاذ الجامعي وبخاصة عندما يطلب الاستاذ من أحد طلابه كتابة بحث ما، حيث تقوم الدنيا ولاتقعد وينهمر سيل الأعذار والتعكز على الظروف الامنية وغيرها، مثلما كان التعكز،سابقا على "الحصار ومعطياته"ولاننسى ظاهرة الرشوة التي تفشت بشكل مروع ومخيف. الان هناك كم هائل من الاعذار التي تبدو مقبولة كانقطاع الكهرباء وسوء الاوضاع الامنية المتردية وقطع الطرقات والشوارع يضاف الى كل ذلك الاغتيالات والتهجير القسري وما الى ذلك من مشكلات أخرى يعاني منها الواقع العراقي المعيش بشكل عام وقطاع التعليم العالي بشكل خاص، وما أريد قوله هنا، أن المشكلات التي تعاني منها الجامعات هي ظاهرة قد تشكلت وتهيأت بفعل الظروف الموضوعية المناسبة، ولاشك اضافة الى المجانية التي اشرت اليها، أقول هناك عدم ادراك دور الجامعة في تغيير الانماط الاجتماعية والسلوكية.

ان المعروف لدينا ان الطالب ومنذ الدراسة الاساسية يتجسد لديه مفهوم أن تكون القراءة والدراسة من أجل اجتياز الامتحان وتحقيق النجاح، وبالتالي الحصول على الشهادة التي تؤهله الى الوظيفة في احدى مؤسسات الدولة، لذا فان عملية التعليم في العراق لاتزال ترتبط بقوة بالجانب الاقتصادي، وهذا واضح وجلي من خلال ترسيخ ثقافة الوظيفة في اذهان جميع الطلبة، حتى شاعت سلوكية اجتماعية تدفع باتجاه الوظيفة فحسب، اذن الذي يشد الطالب الجامعي الى الجامعة هو النجاح حتى ولو بدرجة مقبول، فيما كان الطالب ابان النظام السابق يعزف عزوفا شبه شامل عن النجاح، وهذا ما أشار اليه المطلبي، لا لشيء الا لكي لايلتحق الطالب بالخدمة العسكرية ولكي يكون بعيدا عن مساحة الموت.

المنهج الدراسي تمثله الملزمة المستنسخة

وتضيف سافرة: ما نراه الان، من تلكؤ وكثرة في الغيابات، لايعدو كونه امتدادا لموروث تأسس عبر منظومة اجتماعية وتعليمية شابها الكثير من العثرات وعلى نحو تأريخي مليء بالاحداث التي أدت الى تراجع الوعي والثقافة والمعارف، حتى أضحت الجامعة مكانا لاغير، والطالب فيها مجرد رقم في سجلاتها، والاستاذ الجامعي معلما ليس الا!!، والمنهج الدراسي تمثله الملزمة المستنسخة، حتى صارت أهميتها بموازاة أهمية مؤسسة رسمية، لابل أن هناك مؤسسات تضطلع بدور أكبر من دور الجامعة بكثير، في الوقت الذي تشكل فيه الجامعات لدى المجتمعات المتحضرة التي ترى فيها مصانع لانتاج الوعي والمعارف والعلوم والثقافات ومنتجة للعلماء والمبدعين والمفكرين على تعدد طبقاتهم ورؤاهم، لذا أجد أننا نحتاج الى بلورة وعي اجتماعي وثقافة تعليمية تفضي الى تأسيس جامعي رصين،يبتعد عن المناخات المرضية، لكي نرتقي بالطالب والاستاذ والمنهج الى مستويات متقدمة، تستطيع النهوض بقطاع التعليم العالي برمته.

وتؤكد الدكتورة سافرة ناجي حديثها بالقول: صحيح أننا نعيش أجواء مشحونة بالرعب والخوف والتهديد، ولكن تحدينا لكل هذه العناصر، يكمن في المواظبة على الدراسة، وتحديد أهداف التعليم العالي التي يجب ان تلبي حاجات المجتمع ومتطلباته الآنية والمستقبلية وعلى المديين القريب والبعيد.

وقبل اختتام الندوة تم فتح النقاش والمداخلات والاجابة على التساؤلات ذات الصلة التي أغنت محاور الندوة.